

تأديب العصاة

كانت غزوة بنى النضير خطوة حازمة موفقة، وضربة في الصميم أصابت اليهود والمنافقين معاً، فكسرت شوكتهم وملأت قلوبهم بالرعب، فكف المنافقون عن اللغو والإرجاف وإشاعة الفتنة، وقبّع بنو قريظة في عُقر دارهم يترقبون في حذر وخوف، وهدأت المدينة فترة من الزمن استطاع الرسول ﷺ والمسلمون فيها أن يوجهوا جهودهم إلى تأديب ما بقي من القبائل الشائرة عليهم من أعراب البادية.

غزوة ذات الرقاع

في جمادى الأولى من هذه السنة علم رسول الله أن بنى محارب وبنى ثعلبة يتهاونون لحربه، فخرج إليهم في سبعمائة من أصحابه، وولى على المدينة عثمان بن عفان، وسار صلى الله عليه وسلم حتى نزل «نخلًا»، وهي موضع بنجد من أرض غطفان، فلقى بها جمعاً عظيماً منهم، فتقارب الناس ولم يكن بينهم حرب. وقد خاف الناس بعضهم بعضاً حتى صلى رسول الله صلى الله

عليه وسلم بالناس صلاة الخوف، فكان إذا حضرت الصلاة صلى بفريق من أصحابه، وبقي فريق قائماً يحميهم من غدره العدو، حتى إذا انتهى الفريق الأول من صلاته قام مُجَاهِ العدو وُصلى النبي ﷺ بالفريق الآخر. وسميت هذه الغزوة «ذات الرقاع»، لأن الحجارة أوهنت أقدامهم، فكانوا يشدون عليها رقاع الخرق.

صورة من الإخلاص

وفي هذه الغزوة نزل رسول الله ﷺ منزلاً في شعب من شعاب الوادي، فقال: «مَنْ رَجُلٌ يَكْلُونَا لَيْلَتَنَا هَذِهِ؟» فانتدب لذلك رجل من المهاجرين ورجل من الأنصار فقالا: «نحن يا رسول الله». قال: «فكونا بفم الشعب». فلما خرج الرجلان إلى فم الشعب قال الأنصاري للمهاجري: «أى الليل تحب أن أكفيك، أوله أم آخره؟» قال: «بل أكفي أوله» فاضطجع المهاجري فنام، وقام الأنصاري يصلي. فأتى رجل من المشركين يتبع القوم، فلما رأى شخص الأنصاري عرف أنه رَيْبِةُ القوم^(١) فرمى بسهم فوضعه فيه، فنزعه الأنصاري ووضعه وثبت قائماً، ثم رماه بسهم آخر فوضعه فيه، فنزعه الأنصاري وثبت

(١) رَيْبِةُ القوم: الحارس الذي يراقب العدو.

قائماً؛ ثم عاد له بالثالث فوضعه فيه، فزعه الأنصاري فوضعه
 ثم ركع وسجد. ثم أيقظ صاحبه فقال له: «اجلس فقد
 أثبت^(١)». .. فوثب المهاجري قائماً. فلما رأهما الرجل عرف أنهما
 قد نذرا به فهرب. ولما رأى المهاجري ما بالأنصاري من الدعاء
 قال: «سبحان الله! أفلا أهيبتني^(٢) أول ما رماك؟» قال:
 «كنت في سورة أقرؤها، فلم أحب أن أقطعها حتى أنفدها^(٣)؛
 فلما تابع على الرمي ركعت فأذنتك^(٤).. وإيم الله لولا أن أضيع
 ثغراً أمرني رسول الله بحفظه لقطع نفسي قبل أن أقطع السورة!»

صورة من الثقة

وفي هذه الغزوة ذهب رسول الله ﷺ يَقبِلُ في ظل شجرة،
 وعلق سيفه في فرع من فروعها، فتسلل إلى مكانه رجل من
 العدو، فأخذ سيف رسول الله فاستلّه من جرابه؛ فاستيقظ
 رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فإذا الرجل قائم على رأسه
 والسيف في يده وهو يقول له: «من يمنعك مني؟» قال:
 «الله».. فسقط السيف من يده، فأخذه رسول الله، صلى الله

(١) أثبت: يعني أن ما أصابه من السهام قد أعجزه عن القيام.

(٢) أهيبتني: أيقظتني.

(٣) أنفدها: أفرغ منها.

(٤) أذنتك: أعلمتك.

عليه وسلم، وقال له: «من يمنعك مني؟» قال: «كن خير
أخذ» فعفا عنه صلى الله عليه وسلم، فأسلم، وجاء إلى قومه
فدعاهم إلى الإسلام وقال لهم: «جئكم من عند خير
الناس».

غزوة بدر الآخرة

ولما قدم رسول الله ﷺ المدينة من غزوة ذات الرقاع أقام
بها بقية جمادى الأولى وجمادى الآخرة ورجباً، ثم خرج في شعبان
إلى بدر، لميعاد أبي سفيان الذي ضربه للقتال عند انصرافه يوم
أحد. وكانت بدر سوقاً يجتمع فيها الناس في شعبان من كل
عام، فيقيمون بها ثمانية أيام يبيعون ويشترون ويتبادلون السلع
والمنافع. وكانت قريش قد أصابها الجذب في ذلك العام، وقلت
مواردها بسبب ما ضيق المسلمون عليها في تجارتها، فلم تكن بها
قوة للحرب؛ فعزم أبو سفيان على ألا يخرج إلى بدر في ذلك
العام، وحازر أن يلقي رسول الله ﷺ وأصحابه خشية أن تدور
عليه الدائرة؛ ولكنه خشي كذلك أن يدرك المسلمون ما عليه
قريش من سوء الحال، فلجأ إلى الحيلة ليخذل المسلمين ويشنهم
عن الخروج؛ فاستأجر رجلاً يقال له نعيم بن مسعود، وأوعز
إليه أن يأتي المدينة فيشيع في الناس أن قريشاً قد جمعت
للمسلمين جمعاً لا قبل لهم بها. فقدم نعيم وجعل يُرْجِف في

المدينة بكثرة جموع قريش؛ ولكن رسول الله ﷺ صمم على الخروج في الميعاد مهما كان الأمر، وأقسم قائلاً: «والذي نفسى بيده لأخرجن وإن لم يخرج معي أحد!»

وخرج صلى الله عليه وسلم في ألف وخمسمائة من أصحابه، واستخلف على المدينة عبد الله بن عبد الله بن أبي. فلما أتوا بدرًا لم يجدوا بها أحدًا من قريش، لأن أبا سفيان خشي مغبة اللقاء، فرجع بقومه من الطريق وهو يقول لهم: «يا معشر قريش، إنه لا يصلحكم إلا عام ترعون فيه الشجر وتشربون فيه اللبن، وإن عامكم هذا عام جذب، وإن راجع فارجعوا» .. فرجع الناس، وباءت قريش بخزي النكول عن الحرب ومعرة الفرار من لقاء العدو، حتى سماهم أهل مكة «جيش السوق» .. يقولون لهم في تهكم وسخرية: إنما خرجتم تشربون السوق! وسارت لهم بذلك سمعة بين العرب ذهبت بما كانوا يفخرون به من النصر يوم أحد.

أما رسول الله ﷺ وأصحابه فقد ظلوا يبدر ثمانية أيام، يبيعون ويشترون، فربحوا ربحًا كثيرًا، ونفوا عن أنفسهم وصمة الهزيمة في أحد، واستعادوا ما كان لهم في نفوس الناس من هيبة ومكانة. وفي هذه الغزوة نزل قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدِ جَمَعُوا لَكُمْ فَاصْبِرُوا فَمَا تَخَشَهُمْ فَمَزَقَهُمُ

إيمانًا وقالوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لَمْ يَمَسَّهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللهِ، وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ * إِنَّمَا ذَلِكَمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُم وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾.

فترة هدوء وسلام

وهكذا عاد المسلمون إلى المدينة بعد بدر هذه وهم أكثر ما يكونون طمأنينة وأمنًا، فأقاموا بالمدينة ستة أشهر في سلام ورخاء ودعة. وفي هذه الفترة تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم أم سلمة بعد أن توفى عنها زوجها أبو سلمة، رضى الله عنه، وكان أبو سلمة ابن عمه رسول الله وأخاه من الرضاعة، وأول من هاجر من المسلمين إلى الحبشة. وما زال المسلمون ينعمون بالسلام في هذه الفترة حتى انقضت السنة الرابعة ومضى في السنة الخامسة شهران: المحرم وصفر.

غزوة دومة الجندل

وفي ربيع الأول من هذه السنة (يوليه سنة ٦٢٦) نُمي إلى رسول الله ﷺ أن جماعة من الأعراب «بُدومة الجندل» -

(١) سورة آل عمران الآيات ١٧٣ - ١٧٥.

على حدود الشام - يفسدون في الأرض؛ فيقطعون الطريق
 ويسلبون الأموال؛ وأنهم يريدون أن يذنوا من المدينة؛ فخرج
 رسول الله صلى الله عليه وسلم في ألف من أصحابه،
 واستعمل على المدينة سباع بن عرفة، وسار متخفياً في غير
 الطريق المألوف، يسير بالليل ويكتم بالنهار، حتى قطع الطريق
 في نحو خمس عشرة ليلة. فلما أحسوا بمقدم رسول الله صلى
 الله عليه وسلم أصابهم الرعب؛ فتفرقوا في كل وجه؛ ونزل
 صلى الله عليه وسلم بساحتهم فلم يلتق بها أحداً، فبعث
 سرايا وفرقها في كل ناحية، فرجعوا إليه سالمين؛ وأصابوا
 رجلاً من القوم فجاءوا به إلى رسول الله، صلى الله عليه
 وسلم، فعرض عليه الإسلام فأسلم. ثم رجع رسول الله بما
 أصاب من أنعامهم فدخل المدينة في عشر من ربيع الآخر.

غزوة بنى المصطلق

وفي شعبان من هذه السنة (ديسمبر ٦٢٦) خرج رسول الله
 ﷺ إلى بنى المصطلق، وهم بطن من خزاعة، رئيسهم
 الحارث بن أبي ضرار. وكان قد بلغ رسول الله أنهم يُجمعون
 لحره، فخرج إليهم في جمع كثير من الناس، وخرج معه كثير
 من المنافقين ممن لم يكونوا يخرجون، طمعاً في الغنيمة؛

وخرج معه من نسائه عائشة وسودة. فسار صلى الله عليه وسلم حتى وصل إلى ماء يقال له «المرسيح»، وهناك التقى بالحارث ورجاله، وصف الفريقان للقتال. فلما تراءى الجمعان أمر رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب فنادى في القوم: «قولوا: لا إله إلا الله، تمنعوا بها أنفسكم وأموالكم». فأبوا أن يقولوها، فتراشق الفريقان بالنبل ساعة. ثم أمر رسول الله ﷺ أصحابه أن يحملوا فحملوا عليهم حملة رجل واحد، فقتلوا منهم عشرة وأسرُوا بقيتهم، فما أفلت منهم أحد قط. وغنم المسلمون من الإبل ألفى بعير، ومن الشاة خمسة آلاف، وسبوا أهل مائى بيت من الرجال والنساء والذرية.

وكان من جملة السبي جُوَيْرِيَّة بنت الحارث نفسه؛ فأراد رسول الله ﷺ أن يتألف قومها إلى الإسلام، فأعتقها وتزوجها، فكان زواجها بركة على بنى قومها جميعاً، إذ أطلق المسلمون من أيديهم من الأسرى، إكراماً لصهر رسول الله، صلى الله عليه وسلم. وكان ذلك سبباً في إسلام أكثرهم.

المنافقون يحاولون إثارة الفتنة بين المسلمين

كانت غزوة بنى المصطلق غزوة موفقة في كل خطواتها؛ وكان المسلمون أحرىء أن يغتبطوا ويفرحوا بما كتب الله لهم فيها

من التوفيق والنصر، لولا أن المنافقين أبوا إلا أن يكذبوا صفو هذا السرور، ويُذهبوا من بهاء هذا النصر؛ فقد استغلوا حادثين حدثا بعد هذه الغزوة، كانا جديرين أن يمرَّ كما تمر الحوادث العادية، دون أن يلفتا نظر أحد أو يثيرا دهشة أحد. ولكن المنافقين أبوا إلا أن يستغلوا هذه الفرصة، ليثيروا بأولها فتنة كادت تعصف بوحدة المهاجرين والأنصار، وليدنسوا بالآخر طُهر بيت هو أظهُر البيوت وأقدسها، وأعظمها مكانة في قلوب المسلمين.

أما الحادث الأول فقد كان خلافاً على الماء بين أجير لعمر ابن الخطاب وحليف لبني الخزرج، اشتجر بسببه الرجلان فتضاربا، فصرخ الحليف: "يا معشر الأنصار!" وصرخ الأجير: "يا معشر المهاجرين!" فاجتمع عليهما المتشرعون من هؤلاء وهؤلاء حتى كادوا يقتتلون، وأوشكت أن تقوم الفتنة بين المهاجرين والأنصار. فلما سمع رسول الله ﷺ الصراخ خرج مسرعاً يقول: «ما بال دعوى الجاهلية؟ فأخبروه الخبر، فصاح غاضباً: «دعوا هذه الكلمة فإنها مُتِنَةٌ». .! وأدرك الفريقين فهذاً من ثورتها، وكلم المضروب حتى أسقط حقه، وبذلك سكنت الفتنة وتصافى الفريقان.

ولكن عبد الله بن أبي عز عليه أن تنظفئ هذه الشرارة قبل

أن تُحدث الحريق الذي كان بِوَدِّه أن يسأق على الأخضر واليابس، وأن تموت هذه الفتنة قبل أن تذهب بما في صفوف المسلمين من وحدة وائتلاف. فقد ثار ابن أبي حنن علم بما كان من أمر الحليف والأجير، وجعل يقول في أصحابه: "والله ما رأيت كالיום مذلة!.. قد نافرونا وكاثرونا في بلدنا وأنكروا متنا! والله ما أَعُدُّنا وجلايبَ قريش هذه إلا كما قال القائل: سَمْنٌ كَلْبِكَ يَأْكُلُكَ! لئن رجعنا إلى المدينة لِيُخْرِجَنَّ الأَعزُّ منها الأَذْلَّ!"

ثم أقبل على من حضره من قومه يلومهم ويعنفهم فقال: "هذا ما فعلتم بأنفسكم؛ أحللتموهم بلادكم، وأنزلتموهم منازلكم، وآسيتموهم في أموالكم حتى استغثوا.. أما والله لو أمسكتهم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير بلادكم.. ثم لم ترضوا ما فعلتم حتى جعلتم أنفسكم أغراضاً للمنايا، فقتلتم دونهم، فأيتتم أولادكم وقللتم وكثروا.. فلا تُنفقوا على من حوله حتى ينفضوا!"

أذن واعية

وكان في القوم زيد بن أرقم - وهو يومئذ غلام لم يبلغ الحلم، أو قد بلغ - فحدث رسول الله ﷺ بذلك وعنده نظر

من المهاجرين والأنصار؛ فتغير وجه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ثم قال: «يا غلام، لعلك غضبت عليه».. قال: «لا والله، لقد سمعت منه». قال: «لعله أخطأ سمعك».. قال: «لا يا نبي الله!» قال: «فعلله شُبّه عليك».. قال: «لا والله، لقد سمعت منه يا رسول الله»..!

وشاع في المعسكر ما قال ابن أبي حتى ما كان للناس حديث غيره.. وقال عمر بن الخطاب: «يا رسول الله، مرُّ به عبّاد بن بشر فليقتله»..! فقال له رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «فكيف - يا عمر - إذا تحدث الناس أن عمداً يقتل أصحابه؟.. لا، ولكن أذن بالرحيل».. وذلك في ساعة لم يكن رسول الله ﷺ يرتحل فيها.

وبلغ الخبرُ ابنَ أبي فحلف بالله ما قال من ذلك شيئاً، ثم مشى إلى رسول الله ﷺ وحلف بالله ما قال الذي قال، وأسرع رسول الله عند ذلك السير، وكانوا في حر شديد.

قال ابن إسحاق: «فلما استقل رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وسار، لقيه أسيد بن حُضَيْر، فحياه بتحية النبوة وسلم عليه، ثم قال: «يا نبي الله، والله لقد رحّت في ساعة منكراً ما كنت تروح في مثلها»! فقال له رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «أو ما بلغك ما قال صاحبكم؟» قال: «وأى صاحب

يا رسول الله؟ قال: «عبد الله بن أبي»! قال: «وما قال؟»
قال: «زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليُخْرِجَنَّ الأعزُّ منها
الأذلُّ»! قال: فأنت يا رسول الله - والله - تخرجه منها إن
شئت.. هو - والله - الذليل وأنت العزيز..! ثم قال:
”يا رسول الله أرفق به، فوالله لقد جاءنا الله بك وإن قومه
ليَنظِمُونَ له الخَزَرَ ليتوجَّوه؛ فإنه ليرى أنك قد استلبته مُلكاً“.

ثم مشى رسول الله ﷺ بالناس يومهم ذلك حتى أمسى،
وليلتهم حتى أصبح، وصَدَرَ يومهم ذاك حتى آذتهم الشمس؛ ثم
نزل بالناس فلم يلبثوا أن وجدوا مسَّ الأرض فوقعوا نياماً..
وإنما فعل ذلك رسول الله، ليشغل الناس عن الحديث الذى
كان بالأمس، من حديث عبد الله بن أبي.

ونزلت السورة التى ذكر الله فيها المنافقين، فى ابن أبي ومن
كان على مثل أمره. فلما نزلت أخذ رسول الله ﷺ بأذن زيد
ابن أرقم ثم قال له: «هذا الذى أوفى الله بأذنه».

وبلغ عبد الله بن عبد الله بن أبي الذى كان من أمر أبيه،
فأتى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقال: ”يا رسول الله،
إنه قد بلغنى أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه؛
فإن كنت لا بد فاعلا فمُرني به فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله
لقد علمت الخَزْرَجُ ما كان لها من رجل أبرُّ بوالده مني؛ وإنى

أخشى أن تأمر به غيرى فيقتله، فلا تدعنى نفسى أن أنظر إلى قاتل أبى يمشى فى الناس، فأقتله فأقتل رجلاً مؤمناً بكافر، فأدخل النار". . فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقى معنا».

وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعتفونه. فقال صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب حين بلغه ذلك فى شأنهم: «كيف ترى يا عمر؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لى: اقتله، لأزعدت له أنف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته». . قال عمر: "قد - والله - علمت: لأمر رسول الله أعظم بركة من أمرى"

حديث الإفك

أما الحادث الآخر فهو حادث الإفك والافتراء على عائشة، رضى الله عنها، بما برأها الله منه؛ وذلك أن رسول الله ﷺ فى أثناء عودته من غزوته تلك نزل منزلاً فى الليل، فذهبت عائشة فى الخلاء لتقضى حاجتها، فسقط عقد لها فى الطريق، فرجعت إليه تلتمسه فأبطأت. وكان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، معجلاً فى هذه الرحلة، فأمر بالرحيل دون أن يعلم أو يعلم أحد من الركب بغياب عائشة، فوضعوا هودجها على بعيرها وهم

يظنون أنها فيه، ثم أسرعوا في السير وخلفوها وراءهم.
 فلما عادت عائشة إلى مكان الركب لم تجد فيه أحدًا،
 فجلست في مكانها وهي على يقين بأنهم عائدون إليها لا محالة
 حين يفتقدونها، ثم غلبها النوم فنامت. وكان صفوان بن المعطل
 وراء الركب يتابعه، ليلتقط ما عسى أن يكونوا قد خلفوه من
 متاع أو شيء؛ فلما رأى عائشة عرفها فجعل يسترجع قائلاً:
 «إنا لله وإنا إليه راجعون». . فما زال يسترجع حتى استيقظت
 فلما استيقظت قدم لها بعيره فركبت، وانطلق يقوده بها حتى
 دخل بها المدينة في نحر الظهيرة.

فلما رآها عبد الله بن أبي سأل: "من هذه"؟ فقيل له:
 "عائشة" قال: "امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت ثم
 جاء يقودها!" فجعل المنافقون يتكلمون في شأن عائشة
 وصفوان، وأزجفت المدينة كلها بالإنفك، حتى نزل الوحي من
 السماء ببراءتها، وكذب الذين جاءوا بهذا الإنفك وأحزاهم،
 وتوعدهم بالعذاب العظيم.

طبيعة الحادث

لقد كان هذا الحادث في ذاته أمرًا عاديًا غير جدير بأن يثير
 شبهة أو شكًا؛ فإنه لم يزد في وضعه الطبيعي على أن سيدة

فاتما الريب دون علم منها ولا منهم؁ فأدرکہا تابع الريب فأجارها حتى ردها إلى مأمئها؁ فكان صنعیه معها صنع الريب الذى یؤدی واجبه لأنه واجب؁ فإن لم یکن واجبًا فإنه مروءة ینبعث إلى فعلها الريب الکریم من تلقاء نفسه؛ وفى کلتا الحالتین لم یکن ینبغى أن یكون هناك مجال للشک فى أمرها وأمره؁ لأنه أمر طبیعی تملیه ظروف البیئة وطبیعتها.

وقد هاجرت من قبل أم سلمة من مکه إلى المئنة ولبس معها إلا ولیدها الطفل؛ فلما رأها عثمان بن طلحة على هذه الحال؁ أبت علیه المروءة - وهو مشرک - أن یترکہا وحدها فى هذه المئاة؁ فاصطحبها فى رحلتها حتى أوصلها إلى المئنة ثم عاد؁ فما تحدث أحد من أهل المئنة فى شأنها ولا فى شأن عثمان؁ على رغم أن عثمان كان لا یزال مشرکًا وعدوًا للإسلام والمسلمین؁ وبرغم ما كان فى تلك الرحلة من سعة الوقت وتعدد الفرص لمن أراد أن ینتهز فرصة. ذلك أن الشهامة العربیة تقضى على الريب أن یحسى المرأة حین لا حامى لها ولو كانت من رعاع الناس؁ فكیف وعائشة زوج رسول الله صلی الله علیه وسلم؁ وعقيلة بیت النبوة؁ وسلیلة بیت أب بکر؁ ذلك البیت الذى ما عُرفت له سقطة قط فى الجاهلیة حتى تعرف عنه فى الإسلام؟ وکیف وصفوان ریب یؤمن بالله ورسوله؁ وبعثت

مبادئ الإسلام الذي ينهى عن الفحشاء والمنكر؟ وكيف وهو فوق ذلك رجل عربى فيه شهامة العرب ومروءتهم وسمو نفوسهم؟!.

كان حقد ابن أبي هو السبب في هذه القرية

لكنه الحقد والحسد والضغينة أكلت قلب عبد الله بن أبي، وملاؤه غيظًا على الإسلام ورسوله، ودفعت به إلى هذا الموقف الدنيء، كما دفعت به من قبل إلى مواقف أخرى تكشف كلها عن خبث نيته وسوء قصده؛ فقد عاد ابن أبي من هذه الرحلة مغيظًا عنقًا بسبب ما لقي في مكيدته تلك من إخفاق، وما أصابه بسببها من مذلة وهوان، فدخل المدينة ونفسه تفرور من الغيظ على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فجعل يتلمس فرصة ينفس بها عن نفسه؛ فما كاد يرى عائشة وصفوان عاتلين على فترة من الركب، حتى وجدها أحسن فرصة يطلق فيها الوشاية، ويشعل الفتنة التي عجز عن إشعالها بين المهاجرين والأنصار بسبب الأجيرين، فراح يطلق لسانه بالإفك في عائشة، "عسى أن يوقع بين النبي وأقرب الأصدقاء إليه أبي بكر الصديق، أو يفلح في تشكيك المسلمين في كرامة نبيهم، أو يقيم بين قومه الخزرج وسائر المسلمين شغبًا يقعون فيه، عَصِيَّةٌ له

وأنفقةً من هوانه، فينتقض أمر الإسلام من أوس وخزرج وأنصار ومهاجرين^(١).

لقد كانت ظروف الرحلة وملابسها كلها تدعو إلى العجلة؛ "وكان مسير الجيش في عودته من هذه الغزوة مضطرباً أشد اضطراب، لشيوع الفتنة بين المسلمين وأتباع عبدالله بن أبي^(١)؛ وكان النبي معجلاً ليشغل الناس عن الحديث في أمر هذه الفتنة، حتى جعل، ﷺ، يضرب راحلته بالسوط في مراقبها ليستعجلها؛ فلم يكن من العجب أن يفوت الركب عائشة في هذه الأوبة العاجلة، دون أن يفتن أحد إلى تخلفها وانقطاعها عن الركب. ولكنه الغرض الدنيء والخصومة الوضيعة هبطا بآبى إلى أحط دركات الخساسة، فأطلق هذه الفرية التافهة، وأشاع هذه الكذبة الدنيئة، فتلقفها أناس على شاكلته من المنافقين وأشاعوها في كل ناحية، حتى امتلأت بها الأسماع وتداولتها الألسن، وتحدث بها من لا يدرك ما وراءها من الأغرار والبلهاء.

فرية لا تجوز حتى على امرأة ساقطة

هذه فرية ما كان ينبغي أن تجوز حتى على امرأة ساقطة؛ إذ لا يمكن لامرأة - مهما يكن من حقها وسفاهتها - أن تجاهر

(١) الصديقة بنت الصديق.

بأمرها هذه المجاهرة، وأن تأتي هكذا في وضوح النهار ومعها رفيقها، فتكشف ما خفي من مستور أمرها، وتعلن على أعين الناس أنها قد أتت ما أنت وفعلت ما فعلت؛ فإن في غريزة المرأة - مهما سقطت - نزوعاً طبيعياً إلى التجميل للناس، والظهور أمامهم في أكمل مظهر تستطيعه، حتى لا يزهدهم الناس فيها - على الأقل - إذ هي عالت بحقيقتها.

فهل يكون من الجائز أن تجاهر بمثل هذا عائشة أم المؤمنين والمثل الأعلى للمؤمنات؟ أما كان لها مُزْدَجَرٌ في قول الله تعالى لها ولصواحبها من نساء النبي: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ، وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ * ومن يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهِنَّ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا * يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ، إِنْ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَحْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا * وَقُرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا * وَادْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾^(١)؟.. أفلما كانت تخشى أن يحجل بها غضب الله

(١) سورة الأحزاب الآيات : ٣٠ - ٣٤.

وعقابه، وأن تسقط عن هذه المنزلة التي رفعها الله إليها وكرمها بها..؟ أمّا كانت تستحي أن تدنس طهر هذا البيت الذي ينزل فيه الوحي وتغشاه الملائكة، أو تحسب حساباً لسمعة بيتها وكرامة أبيها..؟

الحق أنها كانت فرية ساقطة، وكذبة لا يقرها عقل ولا دين ولا ذوق، ولا يقبلها منطق البيثة ولا ظروف المجتمع وإن أقاموا عليها ألف دليل ودليل. فكيف "وليس لها سند ولا شبهة إلا أن عائشة تأخرت في الطريق هنيئة حين تحرك العسكر على حين فجأة، في رحلة كانت كلها كثيرة المفاجآت في مواعيد النزول والرحيل؟ تلك شبهة لا تكفي للشك في امرأة من عامة المسلمين الخارجين للجهاد في حضرة نبي الإسلام؛ إذ لو كانت كل امرأة تتأخر في الطريق تؤخذ بالتهمة في دينها وعرضها، لكانت التهم في الأعراض أهون شيء يخطر على بال^(١).

القرآن يدحض الفرية ويجعلها محوراً للتشريع في صيانة الأعراض

من أجل هذا لم يكتف القرآن بتكذيب الفرية ونفي التهمة عن عائشة، بل عالج الموقف من جميع نواحيه علاج الحكمة

(١) الصديقة بنت الصديق.

البالغة التي تصون للأعراض الطاهرة حرمتها، وتقطع على
الأسنة الكاذبة طريقها، وتحفظ للمجتمع الإسلامي سمعته
وكرامته..

الزنى جريمة دنسة لا يمكن أن يأتيها المؤمن

فقد بدأت آيات سورة النور بتحديد العقوبة الزاجرة لجريمة
الزنى، وأمرت بإيقاعها على الزناة بلا شفقة ولا رحمة، وأن
يكون ذلك بمشهد من الناس ليكون موعظة لهم؛ لأنها جريمة
دنسة، بالغة الأثر في إفساد المجتمع وإهدار الكرامة، لا يمكن أن
يأتيها إلا أهلها من الناس، ممن خبثت نفوسهم أو تلوثت
عقيدتهم؛ أما المؤمنون فهم بحكم إيمانهم وتقواهم أبعد الناس
عن هذه الجريمة الدنسة:

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهَا مِائَةَ جَلْدَةٍ،
وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ * الزَّانِي لَا يَنْكِحُ
إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ
ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١)..

(١) سورة النور آيتا ٢، ٣.

الذين يتكلمون في أعراض الناس بغير علم يعاقبون وتهدر كرامتهم

ثم أعقبت ذلك بتحسين المجتمع الإسلامي من شر أولئك
الفساق الذين يَلْعَنون في أعراض الناس بغير علم، ويمدِّرون
كرامات البيوت بغير إثم، فالزمتهم بإقامة الدليل القاطع،
والبرهان الذي لا يقبل الشك على صدق ما يتقولون به على
الناس؛ فإن لم يستطيعوا أن يقدموا هذا الدليل فلهم العقاب
الرادع والهوان اللاذع والكرامة المهترة، حتى يتوبوا عن الخوض
في أعراض الناس.. حتى الأزواج أنفسهم لا بد لهم أن يقيموا
هذا الدليل إذا رَمَوْا زوجاتهم بالفاحشة. فإن لم يستطيعوا كان
عليهم أن يؤكدوا ذلك بالأيمان المغلظة، يُشْهِدون الله فيها على
أنهم صادقون غير كاذبين. وللزوجة بعد ذلك أن تدرأ عن
نفسها، وأن تعارض هذه الأيمان بأيمان مثلها، وتُشْهِد الله على
أن زوجها فيما رماها به كاذب غير صادق:

﴿والذين يَرْمُونَ المحصنات ثم لم يَأْتُوا بأربعة شُهَدَاء
فاجلِدُوهم ثمانين جَلْدَةً ولا تَقْبَلُوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم
الفاسيقون * إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله
غفورٌ رحيمٌ * والذين يَرْمُونَ أزواجهم ولم يكن لهم شُهَدَاءُ

إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين * والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين * ويدراً * عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين * والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين ﴿١﴾.

وبعد ذلك عرضت الآيات حديث الإفك؛ فوصفته بأنه فرية عصبية كاذبة أرادت به الشر للمسلمين وأراد الله به الخير لهم، وأن الله لا بد أخذ هؤلاء الكذبة بذنوبهم: ﴿لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم﴾..

على المؤمنين أن يحسنوا الظن بإخوانهم وآلا يندفعوا وراء الأراجيف

وهنا ألفت الآيات على المؤمنين درساً بالغاً فيما كان ينبغي أن يتأدبوا به في مثل هذه الحادثة الخطيرة؛ فقد كان على المؤمنين أن يحسنوا الظن بإخوانهم المؤمنين والمؤمنات، وآلا يصدقوا هؤلاء الكاذبين حتى يقيموا الدليل القاطع على ما أرجفوا به من هذا الإفك، وآلا يجاروا السفهاء فيما يشيعون

(١) سورة النور الآيات ٤ - ٩.

من ذلك البهتان العظيم، وأن يعصموا ألسنتهم من الخوض فيه.. ثم حذرهم أن يعودوا لمثله أبداً، وأن يعملوا على إشاعة الفاحشة في مجتمعهم، فإن ذلك من عمل الشيطان، وذكرهم بما تفضل الله به عليهم من نعمة الإيمان التي تعصمهم من الزلل، وبما كان منه سبحانه من العفو عن أخطائهم؛ وطلب إلى أولى الفضل منهم أن يغفروا لمن أساء في هذا السبيل، وألا يقطعوا عنهم بسبب هذه الإساءة ما تعودوا أن ينالوهم به من الفضل والإحسان.

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا نَحْسِبُهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ * لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ * لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ، فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ فَآتُوكَ عِنْدَ اللَّهِ هَمَّ الْكَاذِبُونَ * وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِالسَّتِّكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ، وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّئًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ * وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ: مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ * يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَبَيِّنَ اللَّهُ

لكم الآيات والله عليمٌ حكيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ يَجْبُونَ أَنْ تَشِيْعَ
 الفاحشةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللَّهُ
 يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ
 رَعُوفٌ رَحِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ،
 وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ؛ وَلَوْلَا
 فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ
 يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * وَلَا يَأْتِلْ أَوْلُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ
 وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أَوْلَى الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
 وَيُغْفَرُوا وَيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ
 رَحِيمٌ^(١).

قداسة الأعراض

ولما كانت الأعراض أعظم شيء ينبغى أن يسان، وكان
 حديثها أشهى حديث إلى نفوس الفساق والمستهترين، وكان
 الخوض فيها يعرض سمعة المجتمع وكرامات الناس للضياع..
 عادت الآيات إلى التحذير الشديد من الرجم في الأعراض
 بالغيب، ولعنت الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات في
 الدنيا والآخرة، وتوعدتهم بالعذاب العظيم يوم القيامة :

(١) سورة النور الآيات ١١ - ٢٢.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَزُمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تُشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقُّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾^(١).

كل يعمل على شاكلته

ثم خُيِّمَ الموضوع كله بهذا القاعدة الاجتماعية العامة، التي تهدم التهمة من أساسها، والتي تصلح ميزاناً للحكم على كل فرد وعلى كل جماعة في كل زمان ومكان:

﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ، وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾^(٢)..

وهكذا كلُّ يعملُ على شاكلته، وكلُّ إناء بما فيه ينضح؛ فللخبائث أهل الخبائث، وللطيبات أهل الطيبات؛ ولا ينضح الطيب إلا طيباً، ولا ينضح الخبيث إلا خبيثاً؛ و«الناس معادن، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا».

ليس للمؤمن إذن أن يصدق أو يكذب ما يسمعه عن أخيه

(١) سورة النور الآيات ٢٣ - ٢٥.

(٢) سورة النور الآية ٢٦.

المؤمن، إلا بعد أن يدرس الظروف والملابسات، ويلاحظ الأسباب والنتائج، ويتعرف طبيعة الشخص ومعدنه، والبيئة التي نشأ فيها، والأصل الذي تفرغ منه، والدوافع التي أحاطت به فدفعته إلى فعل ما فعل أو ترك ما ترك.. أما أن ينساق مع الإشاعات وينقاد للأراجيف فليس هذا من الحكمة ولا من الإنصاف. وهذا ما أخذه الله سبحانه على بعض المؤمنين في حادث الإفك، وما حذرهم أن يعودوا إليه في قوله سبحانه: ﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

شدد القرآن في أمر هذه القضية

هذه حادثة الإفك كما صورها القرآن الكريم، وفي ظروفها شرع الله ما شرع من الحدود، لحماية المجتمع الإسلامي من جريمة الزنى، ومن جريمة القذف في أعراض المؤمنات، وشدد ما شدد في إثبات هذه الجريمة المنكرة، حتى لا يؤخذ البراءة فيها بقضية مفتر أو إرجاف مُرَجَف، وحتى لا تكون أعراض الناس هدفاً لكل رام، وعرضة لكل أفك أئيم.

وقد يقول قائل: وهل من الممكن أن يأتي المرء بسأريعة شهداء لإثبات حالة الزنى على كل رجل وامرأة؟ وهل من

الممكن أن يتأتى ذلك في كل حالة؟ وهل من المعقول ألا تثبت الجريمة إلا برؤية الشهود الأربعة، وإجماعهم على وقوعها وشهودها بأعينهم؟ أليس ذلك تكليفاً بما هو في حكم المستحيل، وتعجيزاً عن إثبات هذه الجريمة الشنعاء في حال من الأحوال؟.. بلى، قد يكون ذلك متعذراً وقد يكون مستحيلاً؛ ولكن المشرع لاحظ في هذه الناحية أموراً لها خطرها واعتبارها.. لاحظ أن هذا أمر يتصل بأعراض الناس وكرامتهم، وأن ناحية العرض ناحية حساسة، شديدة التأثير بكل ما يمسه من كلام الناس إن صدقاً وإن كذباً؛ ولاحظ أن في طبيعة الناس سرعة التصديق لهذه الإشاعات وسرعة العمل على إذاعتها، وأنها أشهى الأحاديث إلى نفوسهم، وأكثرها جرياناً في مجالسهم؛ ولاحظ أنها تتصل اتصالاً وثيقاً بسمعة المجتمع الإسلامي، وهو المجتمع الذى ينبغى أن يكون مثالا في طهره ونظافته وسمعته الطيبة.

من أجل ذلك وضع المشرع هذه الحواجز القوية، وأقام هذه الحصون التى يتعذر اقتحامها، ليصون بها أعراض المؤمنين والمؤمنات، ويقطع بها السنة السفهاء والمفترين، ويحفظ بها للمجتمع الإسلامى سمعته وكرامته؛ وليضع بها للمسلمين دستوراً قوياً يدعوهم إلى التروى والاحتياط عند سماع هذه الأخبار، وإلى التبين والتثبت من كل ما يقال فيها، ويحول بينهم وبين ما جرى

عليه سائر الناس من تصديق الإشاعات وترويج الأكاذيب بغير علم : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾^(١).

(١) سورة الحجرات الآية ٦.